# ابن رشيق

ـ من محاضرة الاستاذ عبد العزيز الراجكوتي ـ

## ﴿ ابن رشيق بحضرة المعزّ ﴾

المعزّ وان لم نعثر له على شعر كما نقلنا عن ابن خلكان [1] إلا أنه كان مع ذلك ناقدا بصيرا ومصقعا نحريرا ـ والعجب من صاحب المقالة فى دائرة المعارف الإسلامية بالانكليزية حيث زعم ان الذي كان ابن رشيق من شعراء حضرته هو المعز الفاطمي ـ فكأنه لم يفرّق بين المُعزَّيْن ولم يعرف البرّ من البرّ ـ وهذا يتضح من انتقاده على بيتي ابن رشيق الحائيّين وقد مرّا ـ ثم ان نونيته المارة أثبتت لديه أن الرجل كان له شأنٌ ومنتشر له ذكرٌ ولما أنشده لاميته اختصّه لنفسه وجلبه الى ديوانه وحفّه بجوائزه السنية ورفّه بصلاته الخطيرة على ما مر ، وما ساعده الدولة والإقبال لم يُخْوِج شاعرَه إلى غيره . ثم إنّ الدهر قلب له ظهر المِجنّ والايام كما علمت غُدُرٌ وللدهر دُوَلٌ وسيأتيك بيانه .

قال ابن شرف [2] فى أبكار الأفكار له « استدعانى المعز بن باديس يوما واستدعى اباعلى الحسن بن رشيق الأزدى وكنا شاعرَىْ حضرته وملازمَىْ ديوانه فقال أحبُّ أن تصنعا بين يدىَّ قِطعتين فى صفة الموز على قافية الغين فصنعنا حالا من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر ( راجع قطعتيهما فى الغين من شعرهما ) فأمرنا الوقت أن نصنع فيه على حرف الذال فعملنا ولم يُرِ أحدنا صاحبه ما عمل ( وراجعْ قطعتيهما فى الذال من شعرهما ) قال ابن شرف فانت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصد واحدا . ولقد قال من حضر ذلك اليوم ما ندرى مِمّ نتعجب أمن سرعة البديهة أم من غرابة القافية

(١) ولفظه (٢ : ١٠٥) له شعر قليل لم أقف منه على شيء (٢) البدائع ١ : ٢٢٦

أم من حسن الاتفاق » اه فهذا يدل على ما منح شاعريه من الاختصاص وحضهما على المساجلة فى قرض الشعر ومثله ما نقله ابن بسام [1] « أن ابن رشيق دخل عليه يوما وعنده جماعة من الادباء وفى يده أترجة ذات أصابع كأنها واسطة ذهب أو جذوة لهب ، فأمرهم المعز أن يعملوا فيها شيئاً فعمل ابن رشيق :

أترجة سبطة الأطراف ناعمة تلقى النفوس بحظ غير مبخوس
كأنما بسطت كفاً لخالقها تدعو بطول بقاء لابن بادیس

والبيتان كما ترى آية فى الحسن وهما على البديهة فكيف لو تروّى فيهما . ثم قال ابن بسام فاستحسن ذلك منه وفضله على من حضر من الجماعة الأدباء ( كذا ) . ومثله ما روى أنه رجع من بعض غزواته منصورا فتقدم ابن رشيق وأنشده :

وكأنما رايته مشهورةً يوم اقتحامه
أيدٍ تشير الى العدـ ـوّ بسلمه أو بانهزامه

وكذا قوله [2] وقد غاب المعزّ عن حضرته وكان العيد ماطراً :

تجهم العيد وانهلت مدامعه وكنت أعهد منه البشر والضحكا
كأنما جاء يطوى الارض من بعدٍ شوقاً اليك فلما لم يجدك بكى

ولكن لما انتقل المعزّ من سيل أعراب مصر الى المهدية وتبعه صاحبنا طاش فكره وفل رأيه فكان يمتعض من أدنى فلتة ويجبّه على أحقر بادرة ويسىء الظن بصديقه الوفىّ وصاحبه الحفىّ فارتحل الى صقلّية وهو كاره مع انها لم تكن أحسن حالا من إفريقية كما سيمرّ بك

(١) ابن خلكان ٢ : ١٠٥ والبدائع ٢ : ٣٩ وجمنا بين الروايتين
(٢) المعجب ٢ : ١٦ وخزانة الحموى ٢١٤

## ﴿ هو في الخليط ﴾

كان على أعلى درجة من الخلق كما مرّ فى حكاية رحلة الصقلىّ إليه ويذكر لنا فى شعره أنه لا يستحلّ الجفاء بالاخوان ولو على المفارضة

من جفاني فانني غير جافٍ صِلةٌ أو قطيعة فى عَفاف

ويعظ أصدقاءه بأن قلوبى ليس عن سوء الطوية او دُخال فاسد فلا يغرّنكم ذلك

أحب أخى وان أعرضت عنه وقلّ على مسامعه كلامى

الثلثة الابيات . وذكر فى الأنموذج [1] حكاية تدلّ على كرم ومروءة وسماحة نفس ودماثة خُلق فى ترجمة الشاعر أبى الحسن محمد الصرائرى قال « رأيته فى سوق ابن هشام بالقيروان ماشيا فى فرْوأحمر عتيق مما يوارى ركبتيه وقلنسوةٍ قديمة وهو يشترى لحما . فتواريتُ عنه إكباراً له وحياء من رؤيته فى تلك الحال واتّبعتُه إلى بيته فلما عرفته ذهبت فأتيته بعبية كانت لى فيها ثياب لاجملها عليه فاذا هو يُصلح القدر وعليه ثياب نفيسة وعمة شريفة وفى وسطه احرام دبيقى مرتفع فسلمت عليه متعجّبا منه فأنكر حالى فقال مالك فقصصتُ عليه القصة من أوّلها إلى آخرها فأنى بخير وقال قابلت العامة العمياء بما يشبهها » . وقد مرّ فى ذكر شيوخه أنه يتأدّب معهم دائما ويزين أبواب كتابه بنقل أقوالهم بأسمائهم وإن احتاج أن ينتقد على قول أحد منهم لا يخلّ برعاية الادب . ولا يني يُثنى على ولىّ نعمه ابن أبي الرجال الآخذ بُحجزته من الوهاد الى الجبال كأنه يرى عنقه خاضعة لأعباء إنعامه وكاهله ينوء بأثقال إكرامه. والاسف أنى مع طول التنقيب لم أعثر على موادّ تاريخية فهاك ما وجدته من الباب فى شعره

(١) البساط ٦٣

مع ذكر القوافي فقط: يلقننا القناعة وينهانا عن الجشع (التعب). يحذرنا عن مخالطة العوام (الاكفاء والصموت) يخوفنا بالموت ويوقن بالبعث والنشور وتراه تُرْعَدُ فرائصه من ذكر يوم الدين والوقوف بين يدي رب العالمين (القضاء وظُلَل). يحوم حول الحقيقة والجوهر ولا يحفل بالظاهر وليس من أهل الجمجمة والدندنة أو الفخفخة والطنطنة (معتمد). يشكو الينا جوده وبذله كما قيل:

انا اذا اجتمعت يوماً دراهمنا ظلّت الى طُرق المعروف تستبق
لا يألف الدرهمُ المضروب صُرتنا لكن يمرّ عليها وهو منطلق

(جودي) - يلين جانباً عند ذكر الماضين. قال في العمدة [1] وقد ذكر عدّة ابتداءاتٍ للشعراء «وقد قلت أنا وإن لم أدخل في جملة من تقدّم ولا بلغت خُطته»

## ﴿ سعة اطّلاعه وإصابته الغرَضَ وغائر نقده ﴾

هو من سعة الاطلاع وجمع الموادّ اللازمة والوقوف على كتب الشعر والشعراء بمكان لا يُجارَى فيه، بل روى الدواوين الأدبية بروايتها المختلفة، قال [2] وذكر بيتاً لضباب بن سُبيع بن عوف الحنظلي: هكذا روايته بالحاء غير معجمة وهو الصحيح وبعضهم يرويه غمّة بالغين معجمة - وقال [3] في بيتي عمرو بن كلثوم صدرت الكأس البيت وماشر البيت: انه اختلسهما وهما لعمرو ذي الطَّوْق (ابن أخت جذيمة الأبرش) فاستلحقهما عمرو بن كلثوم في قصيدته وكان [أبو] عمرو بن العلاء وغيره لايرون ذلك عيباً اه أقول عزوهما إلى عمرو ذوى الطوق لم يُنبّه عليه ابن كيسان ولا التبريزيّ ولا الزوزني نعم ذكره أبو العلاء في رسالة الغفران [4] والبغدادي [5] في الخزانة في خبر طويل - وهما في كتاب

(١) ١ : ١٥٣ (٢) ١ : ٩٤ (٣) ٢ : ٢١٧ (٤) مصر ٦٨ (٥) ٣ : ٤٩٨

النقائض [١] معزوين لابن كلثوم فى خبر مختلف عما عندهما ، والله أعلم بصاحبهما إلا أنا ذكرناه لغرابته وأن صاحبنا لم يغفل عنه مع شذوذه . ويذكر فى العمدة من الكتب المأخوذ عنها مالا نكاد نقضى منه العجبَ ونسأله « أنّى لك هذا » ولو كان حيًا يسمع لأجابنا « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » وحسبك شاهداً لما نحن بصدده أن كتاب جمهرة أشعار العرب مع عدم شيوع نُسخه وعدم عثور المتقدمين عليه نرى مكتبة صاحبنا مزهوة به حيث يقول [٢] « وقال محمد بن أبى الخطّاب فى كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب » . ونرى أن تعاصر العلماء ربما يمنع بعضهم عن ذكر اسم صاحبه بخير إلا أن صاحبنا لا يستهجنه قال [٣] « وزعم أبو أسامة فيما رأيته بخطه وقد عاصرته وكان علامة باللغة » وأنموذجه فى شعراء عصره ليس إلا . ونراه يأتى [٤] بأشعار المعرى مع المعاصرة فان المعرى توفى سنة ٤٤٩ ه فذكر بيتين له من غير صنعة اللزوم فى عمدته

هذا ما كان من أمر الرواية وأما الدراية فإنه من دقة النظر وغموض الفكر وإصابة المرمى بمحل رفيع . لا يترك قولا نقله إلا ويؤيده أو يزينه إن كان يحتاج إلى بحث . ويدور مع الحق حيثما دار فتراه انتقد على أساتذته وعلى الأصمعى [٥] والصاحب ابن عباد [٦] والقاضى الجرجانى [٧] صاحب الوساطة . وهو بنفسه يعترف فى محل آخر [٨] بفضل القاضى حيث يقول « وهو أصح مذهباً وأكثر تحققا من كثير ممن نظر فى هذا الشأن » ونراه [٩] يوصى الشعراء وصية طويلة قال فيها بعد ذكر ما أحدثه المتأخرون من المعانى المبتكرة والإبداعات الغريبة وإبداء فضلهم على من تقدّمهم « هذا على أنى ذممت الى المحدثين أنفسهم فى أماكن من هذا الكتاب وكشفت لهم عوارهم ونعيتُ لهم أشعارهم ليس هذا

(١) ص ٨٨٦ (٢) العمدة ١ : ١٦١ (٣) ٢ : ١٠٤ (٤) ٢ : ٨٢
(٥) ٢ : ١٩٣ (٦) ٢ : ١٩٣ (٧) ٢ : ١٩٥ (٨) ٢ : ٢١٥ (٩) ٢ : ١٨٥

جهلا بالحق ولا ميلا إلى ثنيات الطُرق ولكن غضًا من الجاهل المتعاطى والمتحامل الجافى الذى اذا أعطى حقه تعاطى فوقه وادّعى على الناس الحسد وقال أنا ولا أحدّ وإلى كم أعيش لكم وأىّ علم بين جنبىّ لو وجدتُ له مستودَعًا ، فاذا عورض فى شعره بسؤال عن معنى فاسد أو متهم أو طولب بحُجة فى لحنة أو شاذ أو نوظر فى كلمة من ألفاظ العرب مصحفة أو نادرة قال هكذا أعرف وكأنما أعطى جوامع الكلم ، حاشَ لله ! وأستغفرالله ، بل هو العمَى الأكبر والموت الأصغر » الى آخر ما نعى به عليهم ونَدّد من تعجرفهم وسُلّم بشىء منه فى الآتى ويحسبك فى لطافة فكره وغَوْرِ سبْره ماقال[1] بعد أن نقل اعتراض الصاحب على بيت المتنبىء فى مرثية والدة سيف الدولة :

رِواق العزّ فوقك مسبطرٌّ ومُلكُ علىّ ابنك فى كمال

ان لفظة الاسبطرار فى مرائى النساء من الخذلان الصفيق الرقيق ثم قال وأنا أقول ان أشدّ ما هجن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة هجاء أنه قرنها بفوقك فجاء عملا تامًا لم يبق فيه الافضاء اه قال العاجز نعم كذا هو « فوقك » فى الوساطة[2] وشرح الواحدى[3] إلا أن فى شرح العكبرى[4] موضعه حولك . وفى الشرحَين قول أبى بكر الشعراني تلميذ المتنبىء أنه غير مسبطرّا وجعل مكانه مستطيلا وان لم يكن بأمثل من صاحبه إلا أن اعتراض ابن رشيق ارتفع بالمرّة واعتراض الصاحب شيئاً قليلا

ونقل في باب أغاليط الشعراء والرواة من العمدة[5] عن الأصمعى قال : قرأت على أبى مُحرِز خَلَف بن حَيّان الأحمر شعر جرير فلما بلغت الى قوله :

وليلٍ كإبهام الحُبارىَ محبَّبٍ إلىّ هواه غالبٍ لىَ باطلُهْ

رُزقنا به الصيدَ الغزيرَ ولم نكن كمن نَبله محرومة وحبائله

(١) ٢ : ١٢٤ (٢) ٧٣ (٣) طبعة بومباى ١٨١ (٤) ٢ : ٢٣ (٥) ٢ : ١٩٢

فيالكَ يوماً خيرُه قبل شرّه تغيَّبَ واشيه وأقصرَ عاذله

قال خلف ويحه ماينفعه خير يؤول الى شرّ فقلت هكذا قرأته على أبي عمرو ابن العلاء قال صدقتَ وكذا قال جرير وكان قليل التنقيح لألفاظه وما كان أبو عمرو ليُفرّطك الا كما سمع . قلت : فكيف يجب أن يكون ؟ قال : الاجود أن يكون خيره دون شرّه فاروه كذلك وقد كانت الرواة قديماً تُصلح أشعار الاوائل . فقلت والله لا أرويه إلا كذا — ثم قال : قلتُ أنا أمّا هذا الاصلاح فليح الظاهر غير أنه خلاف الظاهر وذلك أن الشاعر أراد أنه كان ليلَه في وصال ثم فارق حبيبَه نهاراً وذلك هو الشرّ الذي ذكر والراويةُ جَعَلَه لم يفارق فتغير عليه المعنى الا أن تكون الرواية ويوم كإبهام الحباري — فحينئذ — على أن دون تحتمل ما قصد وتحتمل معنى قَبْل وتكون أيضاً بمعنى بَعْد اه ولا يسلّم قولا ما لم يترجّح عنده بدليل ولا يتلكأ عن تَبْذه ولا يحمله تقدم قائله في العصر على التقليد الاعمى قال[1] في باب رُخص الشعر « ويجوز له (للشاعر) التقديم والتأخير كما قال المُجَبّر السلولي :

وماذاك إن كان ابن عمّي ولا أخي ولكن متى ما أملكِ الضرَّ أنفعُ

برفع العين أراد ولكن أنفع متى ما املكِ الضرّ . ولا أدري ما الفرق بين هذا وبين :

[ يا أقرع بن حابس يا أقرع إنك] إن يُصْرَعْ أخوك تُصْرَعُ

حيث فرّقوا بينهما غير أنا لانسلم لهم كما سلم من هو أنقب منا حساً وأذكى خاطراً » اه أقول سيبويه[2] يجعل تُصْرَع خبر إن وجواب إن يصْرَع محذوف عنده . والمبرّد يجعل فاء الجواب محذوفاً والأصل عنده فتصرع . وهذا شأن المحققين أن يحوموا حول الدليل كما أنكر ابن قتيبة على سيبويه وهو هو عدة

(١) ٢ : ٢١٣ (٢) انظر الخزانة ٣ : ٣٩٦ والسهيلي ١ : ١٦٠

تصحيفات له فى الروايات وبناءً مسائلَ من النحو عليها فى مقدمة طبقات الشعراء (ليدن ص ٣٢)

وأرى أن أنقل هنا آراء عدة من الشعراء فى شعر محمد بن هانىء المغربى قال ابن خلكان [١] فى ترجمته :

ويقال ان أبا العلاء المعرّىَ كان اذا سمع شعر ابن هانىء يقول ما أشبهه إلا برَحَىً تطحن قرونا لاجل القمقمة التى فى ألفاظه ويزعم أنه لاطائل تحت تلك الألفاظ . ولعمرى ما أنصفه فى هذا المقال وما حمله على هذا الافرط تعصبه

وقال ابن شَرَف [٢] في مقامة الانتقاد :

وأما ابن هانىء محمدٌ الأندلسىّ ولادةً ، القيروانىّ وفادةً وإفادةً ؛ فرعىَ الكلام ، سَرَدِىُّ النظام . متين المبانى ، غير مكين المعانى . يجفو بعطَفَيها عن الأوهام ، حتى تكون كنقطة النظام . الاّ أنه اذا ظهرت معانيه ، فى جزالة مبانيه . رمى عن منجنيق ، يؤثر فى النيق . وله غزل قَمَرىّ ، لا عذرىّ . لا يقنع فيه بالطيف ، ولا يشفع فيه بغير السيف . اهـ

وهاك ما ارتأى فيه صاحبنا [٣] بعد أن ذكر أن للشعراء مذاهب مختلفة فى إيثار اللفظ على المعنى أو عكسه :

وفرقة أصحاب جَلْبة وقعقعة بلا طائل معنًى إلا القليلَ النادرَ كأبى القاسم ابن هانىء ومن جرى مجراه فإنه يقول أولَ مذهبته :

أصاخت فقالت وَقْعُ أجردَ شَيْظَمٍ وشامت فقالت لمْعُ أبيض مِخْذَمِ
وما ذُعرت إلا لجَرْس حُليِّها ولا رمقت إلاّ بُرَى فى مخدَّم

وليس تحت هذا كلّه إلاّ الفساد وخلاف المراد . ما الذى يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها لبست حليّها فتوهّمته بعد الإصاخة والرمق وقعَ فرس أولَمْعَ

(١) ٢ : ٥ (٢) من مجموعة رسائل البلغاء ٢٥١ والاحاطة ٢ : ٢١٣ وجمعنا بين الروايتين (٣) العمدة ١ : ١٨١

سيف .... وكانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة فاذا أخذ في الحلاوة والرقة وعمل بطبعه وعلى سجيته أشبه الناسَ ودخل في جملة الفضلاء . وإذا تكلف الفخامة وسلك طريقَ الصنعة أضرّ بنفسه واتعب سامع شعره . ويقع له من الكلام المصنوع والمطبوع في الاحايين أشياء جيدة . ثم ذكر له من كلى (١) القسمين بيتاً بيتاً ثم قال فهذا كله جيّد وقد زاد فيه على البحتريّ الخ. فأنت تراه في حكمه غير مائل عن جادّة الإنصاف ، ولا هائم على وجهه في الشطط والاعتساف ، كآخرين يحملهم الحبّ أو البغض على حرمان المصيب واستحسان المخطىء

## الدعوة الاسلامية وشخصية العرب القومية

ان الدعوة الاسلامية التي دعا اليها النبي العربي الكريم يمكن ان تعد في الوقت ذاته مظهراً من مظاهر بروز شخصية الامة العربية في الكون ، وعاملا في تجدّد صِلاتها مع الامم الاخرى على وجه لا يقاس قوة وسعة بما كان من هذه الصلات قبل الاسلام بعد دور فترة العرب وجاهليتهم

لقد طرأ على العرب في الجزيرة قبل الاسلام ببضعة قرون شيء من الفترة ضعفت فيها دولهم اليمنية المنتظمة التي كانت على الاغلب جماع أمرهم وسمط عقدهم ومدّ الاحباش اليها أيديهم وما لبث ان حل نفوذ الفرس محل الاحباش فيها . ولم يكن المناذرة والغساسنة ليحولوا دون ذلك ، لانهم لم يكونوا وحدة عربية تنقاد اليهم بها العرب على اختلاف اقطارهم وقبائلهم . بل لقد كانوا سببا في ازدياد نفار العرب وحروبهم واتساع شقة الخلاف بينهم . وكثرت بسبب ذلك ، وباسباب جاهلية اخرى ، الوقائع والحروب بين عرب الجزيرة مما هو معروف في التاريخ بأيام العرب يمنيين ومضريين ، ويمنيين فيما بينهم ، ومضريين فيما بينهم أيضا

في مثل هذه الحالة التي أنهكت قوى العرب وشتت شملهم وفرقت وحدتهم وجعلت اخوة القبائل عداء وخصومة وحرباً ودماً ، وفي مثل هذه الفترة التي

(١) قال ابن درستويه في كتاب الكتاب ( ص ٢١ ) أن كلا وكلتا يكتبان في حالة الاضافة الى المظهر والجر أو النصب بالياء فتكتب رأيت كلى الرجلين ومررت بكلى الرجلين